الآراء النقدية لأبي العلاء المعري في كتابه (معجز أحمد)

أحمد فراج محمد إسماعيل

إن العلاقة بين الشاعر والناقد مرت بانعطافات قاسية أحيانا، ولينة أحيانا أخرى، يرجع الأمر فيها إلى طبيعة العصر اجتماعيا وسياسيا وثقافيا، وكان النقاد يميلون إلى الثابت غالبا، ويقلقون من المتغير، ولكن اشتد هذا القلق في فترات تاريخية معينة، ما أدى إلى التعصب للزمن أو للفكرة أو لبناء فني معين، حدث كل ذلك والشاعر ماض في طريقه لا يألو على شيء، فما سمعنا عن شاعر توقف عن الشعر لنقد ناقد، حتى حفظ لنا التاريخ تجارب شعرية ونقدية غنية، كما حفظ خصومات أدبية ومجاملات، حملت معها أفكار ذلك العصر. كل ذلك والعلاقة يمكن فهمها وتحليلها؛ لأنها تقع من شخصين مختلفين: شاعر وناقد، أما إذا وقع الأمر من شاعر ناقد فسيختلف الأمر؛ إذ تتداخل الأبعاد، بين نفسية وثقافية وعلمية وفنية وغير ذلك.

إن دراسة طبيعة العلاقة بين النقد والشعر تعد من المهمات الصعبة إذا كان الناقد هو الشاعر نفسه، وقد تقدَّم في الفنين، وسُمع له، ولا يستغنى فيها عن التحليل النفسي للعملية الإبداعية وهي تحت قيود النظرة النقدية، أو ما يسمى بسيكولوجيا الإبداع. وقد كان أبو العلاء المعري أحد أهم الشعراء النقاد في تاريخ العربية، ويمثل مادة غنية جدا للتحليل، إنه شخصية متعددة الأبعاد؛ لذلك دار حوله الجدل، وانشغل به مَن بعده. وإن هذه الورقة البحثية تُعنى بالمعري ناقدا في كتابه "معجز أحمد" وتزداد قيمتها بقيمة المادة المدروسة؛ فشعر المتنبي علامة مضيئة في تاريخ الشعر العربي، وهو لا يقل عن المعري في مثار الجدل وجودة المنتج.

حاولت في هذه الورقة أن استقصي معالم شخصية المعري النقدية من خلال كتابه، فكان المنهج الوصفي التحليلي الأقرب إلى طبيعة البحث، وقد رجعت إلى آراء سابقيه في بعض القضايا النقدية حسب الحاجة؛ لتتضح لنا مقدمات آرائه، وعلام بنى؟

وتأتي هذه الورقة في مبحثين، الأول: عن المعري وكتابه وموضوعه. والثاني: قسمته إلى ثلاثة محاور: آراء المعري النقدية. وما ذكره من علوم لغوية، وما ذكره من مصطلحات نقدية بلاغية. وأرجو من الله السداد.

المبحث الأول: المعري وكتابه وموضوعه.

أَبُو الْعَلَاء أَحْمد بن عبد الله بن سُلَيْمَان المعري التنوخي، من أهل معرة النُّعْمَان، ولد يَوْم الْجُمُعَة عِنْد مغيب الشَّمْس لثلاث بَقينَ من شهر ربيع الأول سنة ثَلَاث وَستِّينَ وثلثمائة بالمعرة، "وَهُوَ من بَيت علم وَفضل ورياسة، لَهُ جمَاعَة من أَقَاربه قُضَاة وعلماء وشعراء، قَالَ الشّعْر وَهُوَ ابْن إِحْدَى عشرَة سنة أَو اثْنَتَيْ عشرَة سنة"(١)، وقد فقد بصره بسبب مرض الجدري الذي أصاب وجهه وهو في الثالثة، "وَكَانَ قد رَحل أَولا إِلَى طرابلس وَكَانَت بهَا خَزَائِن كتب مَوْقُوفَة فَأخذ مِنْهَا مَا أَخذ من الْعلم واجتاز باللاذقية وَنزل ديراً كَانَ بِهِ رَاهِب لَهُ علمٌ بأقاويل الفلاسفة"(٢) "ورحل إِلَى بَغْدَاد ثمَّ رَجَعَ إِلَى المعرة. "وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل المأثورة"(٣)، منها: لزوم مالا يلزم، وسقط الزند، ورسالة الغفران، ورسالة الصاهل والشاحج، وكتاب الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ، ورسالة الملائكة. "وَقد شرح المعري دواوين الثَّلَاثَة فَسمى شرح ديوَان أبي تَمام ذكرى حبيب، وَشرح ديوَان البحتري عَبث الْوَلِيد، وَشرح ديوَان المتنبي في معجز أَحْمد"(٤).

علمه والجدل حوله:

أقر أغلب النقاد له بعلو الكعب في الشعر والنقد والأدب، إلا أنهم لم يتفقوا على ما تبقى من شؤونه، ومن ذلك علمه وفضله ودينه، وإن كان الأخير هو مجال الاختلاف الأول حوله، إلا أن علمه وفضله قد وجدا منهم نقاط التقاء كثيرة، منهم من مدح فبالغ، ومنهم من اعتدل، ومنهم من قلل من شأنه، يقول ابن أبي زرارة اللغوي: "كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد ولم يكن لهما ثالث وهما ضريران، فالمشرقي أبو العلاء التنوخي بالمعرة، والمغربي ابن سيده الأندلسي"(٥). ويقول العكبري: "ومنزلته في الشّعْر مَا قد

علمه من كَانَ ذَا أدب"(٦) وغير ذلك من الأحكام التي كانت في غالبها ذاتية تميل إلى المجاملة والتغليب، وهو طابع عصري في إصدار الأحكام الكلية، فيقال: نسيج وحده، لم أر مثله، ليس في عصره مثله، وغير ذلك، إلا أن الأمر يختلف عند إصدار الأحكام الجزئية؛ إذ تأتي غالبا معللة علمية موضوعية، وقد يرجع الأمر في ذلك إلى تقدير العلماء والأدباء، فتكاد لا تقرا ترجمة أحدهم إلا وجدت ثناء وإطراء مبالغا فيه أحيانا.

وكان المعري وما يزال مادة ثرية للجدل، فيمكن أن نتلمس التناقض -أو على أقل تقدير الاختلاف الظاهر- في شعره حول فكرة كلية فلسفية أو وجودية ما؛ لذلك كان الاختلاف في شخصيته مسوغا؛ إذ يستطيع كل طرف أن يمسك بدليل يؤيد وجهة نظره، "وله كثير من الشعر يناقض بعضه في حقيقة العالم والشرائع والمعبود، وللناس في اعتقاده أقوال كثيرة، والظاهر أنه كان شاكاً متحيراً، وهو أحكم الشعراء بعد المتنبي، ويفضل عليه في الطبيعيات والاجتماعيات والأخلاق والقوانين والفلسفة والشرائع والأديان"(٧)، وربما أهّلَ تفرّدُ المعري في هذه الصفات لأن ينال منه كارهوه؛ فكثير مما قيل فيه قد افتُري عليه، وقد صرح المعري بذلك، كما أن ذكاءه وحفظه جعل له حسادا وأعداء ألبوا عليه وكذبوا.

وقد كانت له نظرة فلسفية، وترجيحات ذاتية، فلم يدع شيئا إلا أعمل عقله فيه، وقد لفت المعري انتباه الجميع بعد تأليفه كتاب "الفصول والغايات"، فانتضى كثيرون سيوف الزندقة والتكفير، والاتهام بالردة، وهناك من اعتدل في ذلك، وهناك من دافع عنه، ولم تكن المعارك والخصومات الفكرية والنقدية حول المعري في العصر الحديث بأقل منها في القديم؛ فقد كان مصدر إلهام فكري وعقائدي لكثير من المفكرين في العصر الحديث، ووقع الاختلاف فيه أيضا، وقد انبرى كثيرون للدفاع عن المعري، وتبرئته من معارضته القرآن الكريم. ونتج عن هذه الخصومة عشرات الأعمال النقدية والفكرية، وهكذا يكون ثراء الأدب والفكر، بالجدل حول شخصيات نادرة، كأبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي العلاء، في العصور الأدبية المختلفة.

عن المتنبي وديوانه:

إن الكلام عن المتنبي وديوانه أوشك أن يمسي هذرا لا يضيف شيئا من كثرة ما دُرس، فمن شغل النقاد العرب مثل المتنبي قديما وحديثا، فقد "ألفت الكتب في تفسيره، وحل مشكله وعويصه، وكسرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه، والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه، وتفرقوا فرقا في مدحه وذمه، والقدح فيه، والنضح عنه، والتعصب له وعليه؛ وذلك أدل دليل على وفور فضله، وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه بملك رقاب القوافي، ورق المعاني، فالكامل من عدت سقطاته، والسعيد من حسبت هفواته"(٨). وقد انتدب العلماء لديوانه، وشرحوه شروحاً كثيرة، أولهم ابن جني، ومنهم أبو العلاء فقد شرح ديوانه مرتين، "ولم يُسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان، ولا تداول على ألسنة الأدباء في نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي"(٩)

ومما اختلف فيه أيضا حول المعري تعصبه للمتنبي، وهو مأخوذ من مقولة تناقلتها الكتب تقول: كان أبو العلاء المعري إذا ذكر الشعراء يقول: قال أبو نواس كذا، قال البحتري كذا، قال أبو تمام كذا، فإذا أراد المتنبي قال: قال الشاعر كذا، ولكن قد اشتهرت مقولة أخرى له أيضا ترد فكرة تعصبه لمذهب المتنبي الشعري؛ إذ سماه حكيما لا شاعرا، "فسئل أَي الثَّلاثَة أشعر أَبُو تَمام أم البحتري أم المتنبي فَقَالَ هما حكيمان والشاعر البحتري"(١٠)، وكان رأي المعري في المتنبي قائما على أسس علمية ونظرية، لا عن هوى شخصي ونظرة ذاتية وحكم قاصر خال من الأدلة والشواهد، وهذا ما يتأكد لمن يتابع كتابه معجز أحمد، وقد كشفت عن عشرات المواضع التي تبينت فيها موضوعيته العلمية.

معجز أحمد:

شرح المعري ديوان المتنبي مرتين، "الأول سماه (اللامع العزيزي) عمله للأمير عزيز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس الذي كانت ولايته (٤٣٣-٤٤٩هـ)، وهي السنة التي توفي فيها أبو العلاء. والثاني سماه (معجز أحمد)"(١١). وكلاهما لأبي العلاء، ومن الخطأ ما ظنه بروكلمان وغيره أنهما كتاب واحد، "إذا فهما كتابان مختلفان في المنهج والسبق الزمني، وأولهما يختلف عن ثانيهما تماما، وليس ثانيهما اختصارا لأولهما كما ذكر ابن خلكان ومن أخذ عنه"(١٢)، وقد شك أحد الباحثين في نسبته إليه(١٣)، ولكن كثرة المخطوطات التي تنسبه إليه، ترجح

نسبته إليه، وقد رتبه المعري مثلما رتبه المتنبي بنفسه، وهو حسب من قيلت فيهم القصائد، ويبدو أن كتاب اللامع العزيزي مفقود إلا من بعض الشذرات في كتب أخرى نقلت عنه، وذلك كما صرح عبد المجيد دياب محقق معجز أحمد. وقد ألفه وهو رهين محبسه، بعد عودته إلى معرة النعمان من العراق، ودخل في عزلته التي استمرت أكثر من أربعين سنة.

مذهب المعري النقدي:

لم يكن المعري مجرد ناقد أو شاعر يبحث عن المادة الأدبية خالصة من الأهداف الإنسانية التي يحاول من خلالها الشاعر والمفكر أن يقوم اعوجاج سلوكيات الناس، كما أنه "لم يكن هناك ما يغيظه أكثر مما كان يقرؤه ويسمعه من تأويلات النحاة، وتكلفاتهم، وتخريجهم بعض الأبيات على غير حقيقتها للاستشهاد بها على آرائهم الخاصة"(١٤)، وكان يفرق بين الشاعر والمتشاعر، ويفرق بين الشعر والنظم، ذكر ابن الشجري عن أبي زكريا التبريزي قال: "كنت أسأل المعرى عن شعر أقرؤه عليه، فيقول لي: هذا نظم جيد، فإذا مرّ به بيت جيد، قال: يا أبا زكريا هذا هو الشعر"(١٥).

وقد يخالف مذهب النحاة في التوجيه، إلا أن الأغلب متابعتهم، وقد يذكر مذاهبهم، ويفصل القول فيها، يقول ابن الشجري: "وذهب أبو العلاء المعرّىّ في قولهم: عمرك الله، إلى خلاف ما أجمع عليه أئمّة النحويين، فزعم أن العمر مأخوذ من قولهم: عمرت البيت الحرام: إذا زرته، قال: ومنه اشتقاق الاعتمار والعمرة"(١٦). كما كان يعطي أولوية كبيرة للصدق، وحسن النظام، وجودة السبك، وعمق المعنى، وإغرابه، ومن ذلك قوله في بعض تعليقاته: "هذان البيتان يفضلان كتابا من كتب الفلاسفة؛ لأنهما متناهيان في الصّدق وحسن النّظام، ولو لم يقل شاعر سواهما لكان فيهما جمال وشرف". كما أنه قد يوازن بين بيتين أو غرضين أو قصيدتين لشاعرين، ولا يوازن بين الشاعرين، ومن ذلك ما قاله أبو العلاء في مرثية أبى الطيّب، التي رثا بها أخت سيف الدولة، التي أوّلها: (إن يكن صبر ذي الرّزيّة فضلا)، قال: "لو لم يكن للمتنبي غير هذه القصيدة في سيف الدولة لكان ذلك كثيرا، وأين منها قصيدة البحتري التي أوّلها: (إنّ سير الخليط لمّا استقلاّ)(١٧).

منهج المعري وموضوعيته:

لم يكن المعري شارحا فقط، فهو يشرح البيت من ناحية البنية السطحية أحيانا كاللغة والصرف والنحو والأصوات؛ ولاسيما إذا استفزه تركيب ضعيف أو مشكوك فيه أو لافت أو خطأ ما، ثم يبين البنية العميقة المتجلية في معنى البيت ودلالته وإيحائه، فيزيل عنه اللبس وما قد يكمن فيه من غموض، أو يوهم بالإبهام، ويبث من خلال ذلك آراءه النقدية وهي في غالبها عرضا غير مقصودة؛ فهو لم يعمد إلى تأليف كتاب نقدي.

إلا أن الأهم من ذلك هو إثبات أن المعري كان موضوعيا في منهجه، ولم يكن منحازا للمتنبي على الرغم من إعجابه الشديد به، والذي لم يُخْفه من العنوان فوصف شعره بالمعجز، فمن المعروف أن المتعصب يستحسن بلا دليل، ولا يقبح إلا في النادر القليل، ويستخدم القول اللين، ويواري العورة، إلا أن المعري لم يفعل من ذلك شيئا إلا ما بدا أنه مقتنع به، فهو يقبح ويحسن، ويرد ويقبل، ويذكر السرقات، ويورد ما أخذ الشاعر عنهم في مئات المواضع، وحاول أن يبين العورات اللفظية والمعنوية وهو مستشعر أمانته، وأسوق هنا بعض الأدلة على موضوعية المعري في شرحه ديوان المتنبي (معجز أحمد):

١- الرد عليه عند خرقه فكرة عقائدية،

وهذا يرد على من اتهموا المعري بالزندقة، ومنه تعليقه على البيت:

أنا مبصرٌ وأظن أني نائمٌ
من كان يحلم بالإله فأحلما

قال: "شبه هذا الممدوح بما لا يجوز التشبيه به فقال: لا أدرك كنه وصفك، كما لا يدرك حقيقة ذات الباري تعالى. وهذا إفراط منكر قريب من الكفر".

٢- وصف بعض سرقاته بالقبيحة،

ومنه تعليقه المتنبي:

فلا تُبلغاه ما أقول فإنّه
شجاعٌ متى يذكرْ له الطّعن يشتق

فذكر أنه سرقه من قول كثير: "مَتى تُذْكِرَاهُ الْحاجِبِيَّةَ يشتق"، ثم قال: "وهذه السرقة قبيحة، لأنه أخذ المعنى واللفظ والوزن والقافية". وقد وجدت هذا البيت بشرح العكبري وفي ديوان الشاعروقافيته (يحزن) لا (يشتق). وقد تتبع من أخذ عنهم المتنبي بعض معانيه، على طول الديوان وتلك هي السمة الغالبة في الكتاب؛ إذ تجاوز ذلك مئات المرات، ومن ذلك تعليقه على بيت المتنبي:

نحن بنو الموتى فما بالنا

نعاف ما لا بدّ من شربه؟!

يقول: "وقوله: نحن بنو الموتى مأخوذ من قول أبي نواس":

وما المرء إلاّ هالكٌ وابن هالك

وذو نسبٍ في الهالكين عريق

٣- رد بعض الألفاظ واستبدالها للأحسن والأبلغ،

ومن ذلك تعليقه على بيت المتنبي:

كأن نقابها غيمٌ رقيقٌ

يضيء بمنعه البدر الطلوعا

يقول: "شبه نقابها بغيم رقيق، ووجها بالبدر ثم قال: يضيء الغيم بسبب منعه البدر من الطلوع، ولو قال بدله الشمس لكان أبلغ".

٤- يذكر أخطاءه النحوية والعروضية وغيرذلك،

وربما علله له بشاهد، أو بقاعدة نحوية، أو يضمه لباب الضرائر، وغير ذلك، ومن ذلك قوله تعليقا على البيت:

لم نر من نادمت إلاكا

لا لسوي ودك لي ذاكا

يقول: " وقوله: إلاك قبيح لا يجوز إلا في ضرورة الشعر، لأنه وصل الضمير في موضع الفصل".

٥- لا يصدر الأحكام الكلية العمومية الغارقة في الذاتية،

فكان يقول: هذا من بديع شعره، ولا يقول: هذا أشعر بيت، أو: وكل شعره بديع، وغير ذلك مما كان موجودا عند غيره. ومنه تعليقه على بيت المتنبي:

كيف ترثي التي ترى كل جفنٍ

راءها غير جفنها غير راق

قال: "وهذا البيت من بدائع أبي الطيب المتنبي".

ومن موضوعيته أنه ينقل حكم السابقين ويقره، ولا يزيد عليه، وأكثر من ينقل عنه ابن جني، ومن ذلك قوله: "قال ابن جني: هذا من بدائع معانيه" تعليقا على بيت المتنبي:

شجاعٌ كأنّ الحرب عاشقةٌ له

إذا زارها فدته بالخيل والرّجل

وغير ذلك كثير مما يمكن أن يلاحظ من خطوط المنهج الموضوعي البارزة في شرح المعري، وعن انجذابه إلى الذاتية، واعتماده على التعليل والحجة والشاهد؛ لثقته أن المتلقي أصبح واعيا، والمعاني أصبحت معقدة لا يمكن أن يغفل القارئ العربي في القرن الخامس مواضع الحسن والجمال من مواضع القبح والضعف، حيث تمرس هذا القارئ على طول ثلاثة قرون سابقة على المناظرات والتحكيم والموازنات والجدل وعلم الكلام.

المبحث الثاني:

المحور الأول: آراء المعري النقدية:

لقد ماجت الحركة الأدبية والنقدية بالآراء المختلفة في العصور المختلفة، وبلغت ذروتها في العصر العباسي الثاني، وهو يعد قمة العصور الأدبية والعلمية في التاريخ العربي؛ وذلك لانصراف الناس إلى العلم وتشجيع الخلفاء عليه، وأثر الترجمة واختلاط الثقافات، والتغير الكبير في روافد الثقافة، وأثر البحث الديني والمذهبي على العقول.

وجاء المعري بعدما هدأت رحى المعارك النقدية حول مفاهيم استقرت، وأخرى ما يزال ضجيجها يملأ الأفق، ويشغل الساحة الفكرية، والمجالس الأدبية، وكان لشاعر مثل أبي العلاء المعري أن يدلو بدلوه؛ لما له من الفهم الثاقب، ومن الحفظ ما تجاوز به غيره، ومن الشاعرية الوقادة والقدرة على الغوص في المعاني والتقاط أثمنها.

وهذا الجزء من الورقة يرصد ما بدا للباحث أنه يمثل رأيا نقديا واضحا للمعري، وذلك بعد تأمل وتوقف أمام كل كلمة، ومراجعة المواضع المختلفة التي تكرر فيها الرأي نفسه.

١-رصد بعض الأثر النفسي ومقومات شخصية المعري:

يمكن رصد ذلك على صعوبته، وهذا يحتاج إلى دراسة نصوص المعري كلها دراسة معمقة، وليس معجز أحمد وحده، كما أن فيها مخاطرة كبيرة؛ إذ يمكن أن تكون النتائج مخالفة للحقيقة، فلا يمكن أن تدل جملة ذات معنى على خلق عند الإنسان أصيل، إلا إذا قورنت بغيرها مع استقصاء تام للمعنى نفسه في مواضع عدة، ولكن أذكر بعض ما بدا لي من ذلك، ولعل هذه التجربة تكون فكرة لدراسة جادة.

المعري شاعر مفكر يميل إلى استغراق الذهن في محيطه، وليس من الذين يقبلون الأحكام بلا تفكير؛ لذلك ظن بعض المهتمين به منذ القدم أن شخصيته نافرة، خارجة عن أطر الدين، ولكن في الحقيقة إنها ليست كذلك، ولا نستطيع أن نثبت ذلك لشخص يكثر من ذكر ربه في مئات المواضع؛ بحجة كتاب وضعه، وقيل إنه محاذاة للقرآن، وليس فيه إلا ذكر الله

وتمجيده، فهل من الممكن رصد بعض معالم شخصيته وحدودها الفكرية من خلال بعض تعبيراته؟

قد يلاحظ في بعض الأحيان أن المعري زاهد في حطام الدنيا، يكتفي منها بالقليل؛ لذلك يتوقف عند شرح بيت واضح لا خلاف حوله، ولا حاجة لبيانه، فكأنه يبث رأيه هو لا رأي البيت، وأظن ذلك لميله إلى مضمونه وإرادة بث فكرته وفلسفته من خلال شرحه، يقول تعليقا على بيت المتنبي شديد الوضوح:

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي

ويا نفس زيدي في كرائهها قدما

يقول: "يقول: كذا أنا، أي هكذا مذهبي ... لا أرغب في الدنيا، فمتى شئت أيتها الدنيا فاذهبي، ويا نفسي ازدادي في كراهة الدنيا وشدائدها، فإني لا أبالي بالدنيا وحياتها، وخيالاتها". وقد تبدى بروز الأثر الديني في مئات المواضع من الكتاب؛ فهو يسبح الله، ويصلي على النبي، ويرد أقوال المتنبي إذا خرجت على سياق الأدب مع رموز الدين وغير ذلك كثير، هذا وقد تتبع باحثون نظرة المعري الخلقية من خلال مجمل شعره ونثره ونقده، ومنهم من درس حالته النفسية من تشاؤم وزهد وغيرهما، وكذا آراءه فلسفية.

٢-الموازنة والمفاضلة بين الشعراء بناء على أشعارهم لا أشخاصهم، ولا أفكارهم، ومعيار تلك الموازنة:

كان يوازن المعري بين النص والنص لا بين الشاعر والشاعر، لا يقول فلان أشعر من فلان، ولكن يقول: وقد أحسن فلان هنا، ويقول: قولُ فلان أفضل، وهذه نظرة تقدمية، ونقطة مضيئة في مدونة النقد العربي القديم، وكانت معاييره في أغلبها تقوم على الجودة في اللفظ أو المعنى أو الابتكار أو الغموض أو الطريقة والأسلوب، وليس منفرا عنده أن يأتي الشاعر المعنى الذي أتاه غيره ويشاركه فيه، ولكن ألا يجدد فيه أو يكون دونه.

وقد ذكر في عشرات المواضع أن المتنبي قد أخذ معنى البيت من غيره، ومواضع أخرى سرق فيها المعنى سرقة قبيحة أو مقبولة، وهذا من الموازنة بين الشعراء، فنجده في بعض المواضع يستحسن قول الآخر على قول المتنبي، ومن ذلك تعليقه على بيت المتنبي:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه

فمن المطالب والقتيل القاتل؟!

قال: وأحسن من ذلك قول ابن المعتز:

كنت صباحي قرير عيني

فصرت أمسي صريع بيني

وقد يستحسن قول المتنبي على الآخر، ومنه قوله تعليقا على بيت المتنبي:

طردت من مصر أيديها بأرجلها

حتّى مرقن بنا من جوش والعلم

قال: وهو استعارة لطيفة؛ لأنه جعل أرجلها تطرد أيديها في السير، كما يطرد الصيد، وهو مأخوذ من قول بعض العرب:

كأنّ يديها حين جدّ نجاؤها

طريدان والرّجلان طالبتا وترا

إلا أن لفظ أبي الطيب ألطف وأحسن.

وقد يوازن بين المتنبي وأبي تمام على مثال موازنة الآمدي بين أبي تمام والبحتري، ومن ذلك قوله في البيت:

محبك حيثما اتجهت ركابي

وضيفك حيث كنت من البلاد

قال: ومثله لأبي تمام قوله:

وما طوفت في الآفاق إلا

ومن جدواك راحلتي وزادي

إلا أن بيت المتنبي أجود منه؛ لأنه دل على هذا المعنى في المصراع الأول بمعنىً آخر، وأنه لم يقتصر على الراحلة والزاد، لأن لفظ الضيف يتضمن سائر وجوه النعم والتعظيم، لأن من حكم الضيف أن يكون معظماً مكرماً حيثما سار من البلاد.

وقد يوازن بين المتنبي ومن سبقوه جميعا ويقدمه عليهم في فكرة له لم تُسبق، ومنه قوله في البيت:

فشكري لهم شكران: شكرٌ على الندى

وشكرٌ على الشكر الذي وهبوا بعد

قال: أشكرهم من وجهين. أحدهما على نعمهم، والثاني على شكرهم لي في قبول نعمهم، وهذا البيت من بدائعه التي لم يُسبق إليها.

٣-مفهوم الشعر:

يرى أن الشعر لفظ ومعنى وجودة نظم، ويأتي حسنه من ظهور معانيه وانتظامها واجتماعها، فيقول تعليقا على البيت:

كأن المعاني في فصاحة لفظها

نجوم الثريا أو خلائقك الزهر

"كأن معاني هذا الشعر، في فصاحة لفظها وجودة نظمها، نجوم الثريا، وكأنها في حسنها، أخلاقك الحسنة الطاهرة. وخص الثريا؛ لأنها ظاهرة يعرفها كل أحد، ولأنها منظومة مجتمعة، والشعر كذلك"

والشعر يحكم على الإنسان ويسمه سمة الخير أو الشر، فيقول في تفسير قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: " إن من الشعر لحكما " أي يحكم على الإنسان، ويسمه سمة الخير والشر". وبعض الشعر

فصاحة وبعضه مرض، يقول: " بعض الشعر يكون من الفصاحة وبعضه من البرسام". "والبرسام: بالسريانية، ورم الصدر".

٤-مفهوم النقد ووظيفته:

النقد "تحليل وتقويم متعدد الجوانب مبني على إمعان الفكر"(١٨). وقد اهتم العرب بنقد شعرهم، ولأنهم أهل لغة وأدب، ولأن الشعر يعد آلتهم التي برعوا فيها؛ فقد اهتموا بتحسينه والنظر في كل مفردة ومعنى، فكانوا يردون المفردة غير الصالحة، وكذلك المعنى غير المناسب، وكانت نظرتهم جزئية لا تهتم بالتعليل العلمي غالبا، وتصدر أحكاما كلية، فتقول أشعر بيت، حتى ظهر الجدل حول القديم والمحدث، وبدأ اللغويون يبرزون النقد ويختصون به، وينظّرون له، فظهرت المنهجية والعلمية والتعليل النقدي، وبرع النقاد في الكشف عن بواطن وأسرار الكلام، ووضعوا نظريات مشرقة ومتقدمة علميا كنظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني.

والنقد عند المعري هو تمييز الشعر من غيره، والشاعر من المتشاعر؛ فيقول عند شرح قول المتنبي:

إني نثرت عليك دراً فانتقد

كثر المدلس فاحذر التدليسا

"يقول: إني نثرت عليك من شعري دراً، فانتقده وميزه من شعر غيري، واحذر من المدلس الخائن أن يدلس عليك بشعره، يقيمه مقام شعري، أو يحط هذا الشعر عندك من منزلته، فقد كثر المدلسون المتشاعرون"(١٩). فشرح النقد بأنه التمييز، ولاشك أن التمييز يعتمد على ثقافة واعية وعلم غزير يتمتع بهما الناقد، وكذا سمى المدلسين متشاعرين.

لقد ركن المعري إلى المعنى اللغوي للنقد، وهو نقد الأصيل من المزيف، يقول ابن منظور: "نَقَدْتُ الدَّرَاهِمَ وانْتَقَدْتُها إذا أَخْرَجْتَ مِنْهَا الزَّيْفَ"(٢٠)، وهذا المعنى اللغوي لا يبعد عن المفهوم الاصطلاحي للنقد.

٥-القديم والمحدث:

لقد نفع بعضُ الشعراء النقدَ العربي وأثروه وساهموا في تطويره، فما كان للنقد العربي أن تقوم له قائمة بدون شعراء مثل: عمر بن أبي ربيعة وأبي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم، كما أن كثيرا من أشعارهم ما كان لها أن تتجلى أسرارها ودقائقها بدون نظرة ثاقبة في بواطنها ممن له معرفة باللغة وعمق في النظرة وقدرة على التحليل، إنها علاقة تكاملية بين النقد والأدب، فالأدب هو المادة الخام للنقد، والنقد لا وجود بدون مادة يطبق عليها نظرياته.

وإن قضية الصراع بين القديم والمحدث تعد أهم قضية أنتجت النظريات والنظرات النقدية، فبفضلها نشأت قضايا مهمة مثل: البديع وعمود الشعر والسرقات والموازنة بين الشعراء، ثم أخذ النقد يستوي على سوقه.

لقد أثيرت هذه الإشكالية بعد ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية غيرت ملامح شبه الجزيرة العربية تغيرا كبيرا، فاختلط المجتمع العربي الخالص بغيره من الشعوب، وامتزجت معارفه بكثير من الثقافات، وانشقت الصفوف، وامتُحنت الآراء، وتفرقت الأهواء، وتنوعت الخصومات بين سياسية وقبلية وحزبية ودينية واجتماعية وعرقية، وبدأت اللغة تُنتقص من أطرافها، ودخلها اللحن، فانبرى لها طائفة من الرواة واللغويين، ووضعوا خطا زمنيا فاصلا بين الأصيل والمولد، ورفعوا أسوارا عالية تحد بين اللغة الأصيلة والدخيلة، والطبع والتكلف.

وظهر تيار يعيش واقعه، ويخرج على هذه الأطر جميعا، ولا يكتفي بالخروج على العمود، بل نزع بعض أبنائه إلى التجديد، واتهم بعضهم القديم، ودعوا إلى التعايش مع الواقع الجديد، فلم يعد العقل الذي تمرس على الجدل وعلم الكلام والمناظرات، وشذبته الحضارة، ليقف على الأطلال يستنطقها. وقد بُذرت بذور التجديد في عصر صدر الإسلام، وأخرجت نباتها في العصر الأموي، واستوت النبتة على سوقها في العصر العباسي الأول، وآتت أكلها في العصر العباسي الثاني.

وكان المعري من أبناء هذا العصر الأخير، فماذا رأى؟ يُقرُّ المعري أن للشعراء عادة تآلفوها في قول الشعر، منها تقديم النسيب على المديح، وهذا تعليقا على قول المتنبي: (إذا كان مدحٌ فالنّسيب المقدّم) فقال: "يقول: من عادة الشعراء أن يقدموا النسيب على المديح"، وعلى الرغم من أنه يقول ذلك في سياق شرحه لقول المتنبي إلا أنني ألاحظ أنه يمر على ما يقره بلا تعليق، وما لا يقره أراه يعلق عليه بمخالفته أو توضيحه؛ لذلك يبدو لي أن المعري كان متفقا مع المتنبي في كثير من آرائه.

أما تعريف المولد والقديم، فيقول تعليقا على بيت المتنبي:

رأيتك توسع الشعراء نيلاً

حديثهم المولّد والقديما

يقول: "القديم: من كان في الجاهلية. والمخضرم: الذي أدرك الجاهلية والإسلام. والإسلامي: من ولد في الإسلام إلى وقت بشار. والمولد: من كان في وقت بشار، وهم إلى يومنا، فبشار أبو المولدين وكذلك الحديث.

كما يلمح في طول الكتاب وعرضه رضاه عن التجديد في الشعر، لاسيما إذا كان متين الصياغة حسن النظم، ذا معنى عميق حسن، وذكر ذلك في كثير من مواضع هذا الكتاب ومنها تعليقه على بيت المتنبي:

فشكري لهم شكران: شكرٌ على الندى

وشكرٌ على الشكر الذي وهبوا بعد

يقول: "وهذا البيت من بدائعه التي لم يسبق إليه". فجعل المعنى الذي سبق إليه المتنبي بديعا، على الرغم من أن المتنبي كرر كلمة شكر خمس مرات في بيت واحد، إلا أن المعنى كان بديعا وجديدا لم يسبق إليه، وهذا سر إعجاب المعري، فكان ينحاز إلى أثر المعنى في النفس أكثر من النظر في فنون البديع البلاغية.

كما أن المعري يظهر تقديره لعامل الزمن والشاهد في الحكم على البيت أو المعنى أو اللفظ مشيا على عادة نقاد عصره، وقد يبرر للمتنبي في خرق قاعدة، ولكنه لا يتعصب لهذا العامل الزمني، ولا يتوقف عنده في الحكم على جودة بيت أو رداءته، فقد يعلل لكسر قاعدة بالشاهد. كقوله في سناد الردف في بيت المتنبي:

تمرّ الأنابيب الخواطر بيننا

ونذكر إقبال الأمير فتحلو لي

فيقول المعري: "إلا أنه قد جاء في الشعر القديم مثله وهو:

إذا كنت في حاجةٍ مرسلاً

فأرسل حكيماً ولا توصه

٦-عمود الشعر وعادة العرب:

لم أجد للشاعر كلاما حول عمود الشعر، على الرغم من أن المصطلح قد استقر في عصره، بل قبل ذلك بما يزيد عن قرن عند المرزوقي، وذكره الآمدي عن البحتري في موازنته ثلاث مرات، وأصبح مصطلحا نقديا معروفا، وقد عني بمقابله وهو البديع، فأكثر من ذكره، وربما يلمح باستغنائه عن المصطلح إلى بعض النتائج التي يمكن استخلاصها، ومنها: أن البديع قد اتفق على تحسينه، والتجديد أصبح أمرا واقعا مطلوبا، وليس كما كان في القرون السابقة، ومنها: أن الحكم على جودة الشعر وقبحه من خلال عمود الشعر والتزامه لم يعد حكما نقديا لأهل ذلك الزمان، فللشاعر أن يجدد كيف يشاء بشرط أن يبدع في هذا التجديد، ومنها: أن مفهوم الالتزام بعادة العرب لا ينبغي أن يكون في الناحية الشكلية البنائية للقصيدة ولكن في مذاهبهم واتجاهاتهم في التأويل أي في المعاني عموما، فهذا ممكن لأنه يخرج عن إطار البناء ويصب في إطار المعنى؛ لذلك أجده يستخدم مصطلح (عادة العرب) في النواحي المضمونية لا الشكلية، ومن ذلك: تعليقه على بيت المتنبي:

أيا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُدُود

وَقَدَّ قُدودَ الحسانِ القُدُود

يقول: "يدعو على ورد الخدود والقدود الحسنة، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون على عادة العرب في أنهم إذا استحسنوا شيئاً وتعجبوا منه دعوا عليه! نحو قولهم: قاتل الله فلاناً ما أفصحه!"، وتعليقه على قوله: (فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها)، يقول: "أستسقي الغمام له. على ما جرت به عادة العرب"، وتعليقه على البيت:

تبخل أيدينا بأرواحنا

على زمانٍ هي من كسبه

يقول: كيف نبخل على الزمان بأرواحنا، وهي له وكسبه على ما جرت به عادة العرب في نسبة الأمور إلى الدهر".

٧-البديع:

يلاحظ من يقرأ معجز أحمد أن المعري يكثر من توظيف هذه المفردة فيه؛ لتكون كاشفة عن سر جمالي معنوي غالبا، أو لفظي أحيانا، فكلمة البديع جاءت في طول الكتاب وعرضه بمعناها اللغوي غالبا لا الاصطلاحي الذي يعني "فنون البلاغة" وما استحدث من تجديد الشعراء وخروجهم على عمود الشعر وعادة الشعراء في العصر الجاهلي والإسلامي، كما ورد عن ابن المعتز ومن تبعه، ولا أنكر أنها جاءت أحيانا لوصف بعض فنون البلاغة كالتشبيه وغيره كما سأورد من أمثلة، لكنه غالبا ما كان يقصد بها استحسان المعنى والطريقة في التعبير؛ لذلك عبر عن هذا الاستحسان في التجديد بكلمة "اختراع" في مواضع أخرى، فكان يظهر من خلال هذه الكلمة استحسانه لبيت ما، ويظهر أنه يعني بالبديع والتجديد والاستحسان، الخروج عن العادة، فيقول في البيت:

ذكر الأنام لنا فكان قصيدةً

كنت البديع الفرد من أبياتها

"يقول: الناس بمنزلة القصيدة. والممدوح بمنزلة البيت البديع الفرد من أبيات تلك القصيدة. قال أبو الفتح بن

جنى: هذا البيت هو البديع الفرد من هذه القصيدة". ويعلق على البيت:

غضبت له لمّا رأيت صفاته

بلا واصف والشّعر تهذى طماطمه

يقول: "لما رأيت صفاته بلا واصف يصفها بحقائقها، غضبت لهذا الممدوح، فبصرت ببدائع شعري، وصار شعر غيري كالهذيان الذي لا معنى له". كما يشير إلى فكرة التجديد بكلمة الاختراع في مواضع فيقول"وهذا من اختراعات أبي الطيب وفرائده" تعليقا على البيت:

فإن تفق الأنام وأنت منهم

فإنّ المسك بعض دم الغزال

كما أنه يلحق البديع غالبا بالأثر المعنوي، فكأن جمال المعنى يكمن في بديعه، وجمال اللفظ يكمن في غريبه، فيقول في بيت المتنبي:

حملت إليه من لساني حديقةً

سقاها الحجي سقى الرياض السحائب

"شبه قصيدته بالحديقة، لأنها تجمع بديع المعاني، وغرائب الألفاظ، كما تجمع الحديقة من الأثمار والأنوار".

كما عنى بالبديع دقة المعنى والإغراب في الشعر، وهو ما يعرف حديثا بمصطلح الغموض، فيقول في البيت:

شاعر المجد خدنه شاعر اللف

ظ كلانا رب المعاني الدقاق

"يقول: هو شاعر المجد يبدي فيه البدائع والغرائب، وأنا شاعر اللفظ، فكل واحد منا بديع في فنه، ويغرب في شعره، ويأتي بدقائق المعاني التي يعجز عنها غيره، فالملوك عجزوا عن مجده، والشعراء عجزوا عن شعري".

ويبقى أن نذكر أن المعنى الرئيس الذي لمحته من توظيف كلمة البديع هو مجرد الاستحسان، ومن ذلك تعليقه على بيت المتنبي:

كأنها في نهارها قمرٌ

حف به من جنانها ظلم

قال: "وقوله: في نهارها قمر: تشبيه بديع، وهو أن يجتمع الليل والقمر في النهار"

٨-الطبع والتكلف:

الطبع عند المعري نقيض التكلف والتصنع ومجاوزة الحد ومخالفة ما في النفس، كما جاء بمعنى موافقة أحكام النحو. ومن ذلك قوله في بيت المتنبي:

وكلمةٍ في طريقٍ خفت أعربها

فيهتدي لي فلم أقدر على اللحن

يقول: "رب كلمة خفت في إظهارها، فلم أقدر على أن ألحن فيها؛ لأني مطبوع على الصواب في الإعراب".

وكان المتنبي مولعا بذكر الطبع، ويمدح به نفسه كثيرا، فهو لا يلجأ إلى التكلف والصنعة في شعره، وهذا وفر للمعري مادة يعلق عليها بأوجه مختلفة، والطبع عند المتنبي ضد التصنع والادعاء ومخالفة الفكرة، وعبر عن ذلك في أكثر من موضع، منها:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ

وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

قال المعري: "يقول: إن حسن الحضريات مصنوع بالتطرية، وحسن البدويات مطبوع، والمطبوع خير من المصنوع".

والطبع ضد التكلف وتناهي الحد، ومن أقواله في الطبع قوله: "إن الإنسان إنما يظفر بمراده إذا جرى على طبعه، فإذا تكلف أدى إلى الغلط والزلل". ويرى أن الطبع هو العادة التي يجبل المرء عليها، يقول: "أسرع شيء انتقالاً، وأقربه زوالاً هو: تكلف ما في طبعه خلافه". ويرى أن الطبع لا يمكن مواربته، أو التحايل عليه، أو الالتفاف حوله، ومن هنا يكمن سر جماله، يقول: "الطبع لا يقدر أحد أن ينقله إلى غيره، ويغيره عما هو عليه".

٩-عدم عنايته بذكر الأثر المعنوي لفنون البلاغة اللفظية ومولدات الإيقاع الداخلي:

ربما لم يُظهر المعري اهتمامه بالفنون البلاغية التي تُعنى باللفظ أو الإيقاع؛ لقناعته بأن أثرها واضح وجلي، ويبدو أنه ألف كتابه بقصد بيان ما غمض من شعر المتنبي، والوقوف على أسراره المعنوية، وإبراز تميزه.

ليس البديع اللفظي –أقصد به فنون البلاغة التي تعنى باللفظ– ما كان يشغل المعري قدر انشغاله بالمعنى وأسراره ودقائقه، وهذا مناسب تماما لمذهب المتنبي، وهو الشاعر الذي تفنن في استقصاء المعنى وتصويره، وابتكار كل جديد لافت فيه، ومع ذلك لم يغفل المعري الجانب اللفظي، بل إنه كان يراقبه ويعلق عليه كلما دعت الحاجة، وقد أبدع بعض أبواب البديع المتعلقة باللفظ والمعنى معا، مثل مصطلح: (الطاعة والعصيان) الذي ذكره تعليقا على بيت المتنبي:

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر

ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

فقال: "الصناعة قد أوجبت على المتنبي أن يقول :يرد يداً عن ثوبها وهو مستيقظ يقظان، فلم يطاوعه الوزن فأتى بقادر" أي أنه لم يطاوعه الطباق فجاء

بالجناس الناقص، فقد سبق إلى هذا الفن البديعي وتبعه من جاء بعده وجعلوا بيت المتنبي هو الشاهد الرئيس عليه، وربما لم يفتشوا في هذا الباب البديعي الجديد والغريب لثقتهم في علم المعري وذوقه، وإلا فإن الشاعر يستطيع أن يأتي بكلمة أخرى ليصنع الطباق مع الحفاظ على الوزن، مثل شاهد، ناظر، مبصر، مدرك، وغيرهما.

وقوله (الصناعة أوجبت على المتنبي) لا يعني الحط من الصنعة، إذ إن المعري يرى أن الصناعة لا بأس بها، والقصد إلى البديع لا حرج فيه مادام الأمر يتعلق بتحسين المعنى وتجويده وصنع الأثر القوي في المتلقي، والميل إلى التجديد في المعاني، والإغراب الذي يحدث هذه المتعة، وهو ما يلمح في كثير من مواطن إعجابه بشعر المتنبي.

لم يتكئ المعري على بيان أوجه التحسين اللفظي وفنون البلاغة فيه، فلم يتوقف على بيان أثر الجناس والسجع وحسن التقسيم، وغير ذلك، بقدر توقفه على العلاقات المعنوية التي تربط اللفظ بما حوله من ألفاظ، ومن أمثلة ذلك:

- أنه لم يعلق عند شرح البيتين التاليين على (تدري-تذري)، و(منعمة ممنعة)، وغيرها كثير من مواضع الجناس الواضح إلا لضرورة، كما ذكر في توثيق فكرة (الطاعة والعصيان)، فقد شرح البيتين التاليين ولم يعلق على هذا الفن مع وضوح أثره الإيقاعي واللفظي.

أسائلها عن المتديريها

فلا تدري ولا تذري دموعا

منعمةٌ، ممنعةٌ، رداحٌ

يكلف لفظها الطير الوقوعا

- لم يوضح أيضا قيمة حسن التقسيم أو الترصيع في البيت، مع وضوحه وجلائه وأثره، ومن أمثلة ذلك تعليقه على البيت:

تفكره علم، ومنطقه حكمٌ

وباطنه دين، وظاهره ظرف

فذهب يوضح عذر المتنبي في تصريع عروض الطويل من وجهين، ولم يذكر الأثر الإيقاعي الداخلي في البيت مع أهميته.

١٠-استحسان قصد البديع أحيانا في الشعر، وإظهار التمكن فيه:

وهذا ينافي الطبع، ويتظلل بظل الصنعة، فمتى قصد الشاعر التجويد الشكلي غفل عن المعنى، ومتى قصد تجويد المعنى غفل عن اللفظ، ولكن الأفضل أن يكون القصد في غرض القصيدة، والمعنى العام فيها، ويترك للطبع تجويد المعنى، ويترك للدربة والمعرفة العلمية تجويد اللفظ، وهذا ما كان ظاهرا عند شعراء الطبع كما سُموا، أما الشعراء المولدون وشعراء الصنعة فظهر عندهم استحسان قصد البديع، وقد رأى المعري أن هذا المذهب لا غبار عليه، إذ المهم أن يحقق الشعر المتعة والأثر، سواء قصده الشاعر أم جاء سليقة دون تكلف، ومن ذلك تعليقه على التلاعب اللفظي الظاهر في بيت المتنبي من الطويل:

عش، ابق، اسم، سد، قد، جد، مر، انه، ره، فه، أسر، نل

غظ، ارم، صب، احم، اغز، اسب، رُع، زُع، ده، له، اثن، بل

يقول المعري: رآهم يستكثرون الحروف فقال. يظهر مقدرته على جمع كلمات كثيرة في بيت واحد ... وهذا البيت لم يسبقه أحد إلى مثله. ولا لحقه أحد فيه، وهو مركب من أربع وعشرين كلمة، وهي مع ذلك فصيحة، وقد قال قبله عدة من الشعراء فلم يزيدوا على عشر كلمات: فقال سيف الدولة: أيمكن أكثر من هذا؟! فقال: نعم ولكن يغيظ جداً.

١١-كثرة الاستشهاد من القرآن والشعر القديم ومن شرح ابن جني:

إن الشاهد في لغة النقد القديم له أهمية كبيرة، ولأجله احتدمت قضية الصراع بين القديم والمحدث، واهتم به النقاد من اللغويين والشعراء، واحتل الشاهد هذه الأهمية تحت ظل الخوف على اللغة العربية من الموالي الذين وفدوا إلى جزيرة العرب، وبدأ اللحن يتفشى، بالإضافة إلى أن الشاهد يرتبط ارتباطا وثيقا بمهنة هؤلاء اللغويين من حيث التأليف، وتربية أبناء الخلفاء، وغير ذلك. وقد كان المعري من أحفظ معاصريه، واستثمر حافظته لبيان السرقات بين الشعراء، وبيان تميز المتنبي في التعبير عمن سبقه، وكذلك استخدمها في الاستشهاد، كما أنه أكثر من الاستدلال بكلام ابن جني صاحب المتنبي، وهو أول شراح شعره، والمرجع الأول في تفسير ما خفي منه؛ لذلك كان وجه استدلال المعري بكلام ابن جني بهذه الكثرة مقبولا. ومن ذلك قوله في البيت:

شديد البعد من شرب الشّمول

ترنج الهند أو طلع النّخيل

قال: "قال ابن جني: في الكلام حذف. فقوله شديد البعد خبر ابتداء محذوف، أي أنت شديد البعد".

ومن استناده إلى المراجع قوله تعليقا

على قافية بيت مضطربة: "وموضعه كتاب القوافي ... وقد جاء مثل هذا في الشعر القديم".

ومن استشهاده بالحديث الشريف قوله تعليقا على البيت:

ففي فؤاد المحب نار هوىً

أحر نار الجحيم أبردها

قال: "يعني أن أبرد نار الهوى مثل أحر نار الجحيم؛ وقصد بذلك تعظيم الهوى، وقد ورد الخبر بأن نار جهنم تزيد على نار الدنيا بسبعين درجة، فإذا كان أبرد هذه النار تزيد على أحر تلك، فلا مبالغة فوقه".

وقد ألحق كتاب معجز أحمد بفهرس للآيات والأحاديث والشواهد وغير ذلك مما يسهل على الباحث بنظرة واحدة أن يدرك مدى اعتماده على الاستشهاد من القرآن والسنة وأقوال العرب وأشعار السابقين.

١٢-السرقات والأخذ من السابقين:

السرقات الأدبية من القضايا المهمة جدا التي نشط البحث فيها في ظل قضية الخصومة بين القديم والجديد، وظهرت بمحاذاة قضيتي عمود الشعر والبديع، وقسمها النقاد إلى حسنة وقبيحة، وأظهروا معاناة الشاعر المحدث ومحنته في إظهار قدرته بعد سبق القدماء إلى المعاني، وسماها ابن طباطبا (محنة الشاعر المحدث)، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى حفظ أكبر قدر ممكن من شعر القدامى والمولدين والمحدثين لرصد هذه السرقات، وقد برع المعري في حفظ الشعر وفاق غيره، ويكاد لا يكون له منافس، ويسهل رصد ذلك في كل صفحة تقريبا من صفحات مؤلفاته، حيث يعنى كثيرا برصد السرقة والنقل والأخذ، وغير ذلك من المصطلحات التي استخدمها ليعبر بها عن نقل المعاني من شاعر إلى آخر، وكان يذكر أحيانا طريقة الشاعر في نقل المعنى من فن شعري إلى آخر وهذا من سبل حل مشكلة محنة الشاعر كما ذكر ابن طباطبا وغيره، كما كان يرصد التطور التاريخي لهذه السرقة، أي تناقلها بين الشعراء، وكذلك رصد تطورها الدلالي ومدى تغيير الشاعر فيها لتحسن سرقته، أو ليعميها على المتلقين، ولكن أنى له أن يعميها على المعري وهو من أحفظ الناس للشعر العربي! فقد كان مولعا ببيان ما بين شعر المتنبي وما سبقه من سرقة أو تناص أو تشابه وتقارب، ويبين أيهما أجاد، وأيهما لم يُجد، وساعده في ذلك حفظه، وتمكنه من رواية أشعار العرب. إن تتبع ما قبح من سرقات المتنبي وما حسن ينفي تعصب المعري له، ويثبت موضوعيته وانتماءه للعلم لا للرجال.

والملاحظ أنه كان يعبر عن السرقة القبيحة بكلمة (سرقة) وعن السرقة الحسنة بمصطلح (الأخذ) أو يقول (ومثله قول فلان) أو (وهذا كقول الآخر) أو (وهذا من قول فلان) وذلك على سبيل الاستحسان؛ إذ إن المتنبي قد غير أو نقل أو طور أو عدل، فاستساغها المعري ولم يجعلها من السرقة؛ لذلك نفى المعري مصطلح السرقة عن بعض أبيات المتنبي مع إثبات التأثر والأخذ. كما لاحظت أنه كان يربط بين معاني المتنبي والبحتري وأبا تمام، حتى تشعر أن يوازن بينهم ليثبت الفضل له عليهما.

لقد نفى المتنبي السرقة عن معانيه في بيته:

أنا السّابق الهادي إلى ما أقوله

إذ القول قبل القائلين مقول

ويعلق المعري قائلا: أنا السابق إلى ما أقوله من الشعر، والمبدع لمعانيه، وغيري من الشعراء يسرق".

ومما جاء بذكر مصطلح (سرقة) ويقصد القبيح منها قوله تعليقا على بيت المتنبي:

فلا تبلغاه ما أقول فإنّه

شجاعٌ متى يذكر له الطّعن يشتق

"يقول: وهذا بيت كثير نقله من النسيب إلى الشجاعة، وهو: فلا تذكراه الحاجبية يشتق، وهذه السرقة قبيحة، لأنه أخذ المعنى واللفظ والوزن والقافية".

ومما برر له فأخرجه من السرقة قوله تعليقا على بيت المتنبي:

طلعن عليهم طلعةً يعرفونها

لها غررٌ ما تنقضي وحجول

" لها عزر مأخوذ من قول السموأل:

وأيّامنا مشهورةٌ في عدوّنا

لها غررٌ معلومةٌ وحجول

فهو وإن وافقه في المعنى والوزن والقافية وبعض الألفاظ، إلا أن هذا لما كان من العام المنتشر لا يقال فيه: إنه مسروق".

ومما ذكره من الأخذ الذي لم يجعله من السرقة القبيحة، ولكنه من باب اطراح المعاني في الطرقات كما قال الجاحظ:

ما بال هذي النّجوم حائرةً

كأنّها العمى مالها قائد؟!

يصف طول الليل ويقول: ما للنجوم من هذا الليل متحيرةٌ واقفةٌ لا تزل! فكأنها عميان لا قائد لهم، فيبقون متحيرين لا يهتدون إلى مذهب. وهذا البيت مأخوذ من قول ابن المعتز:

والنّجم في كبد السّماء كأنّه

أعمى تحيّر ما لديه قائد

ومن ذلك تعليقه على بيت المتنبي:

وليس يصحّ في الأفهام شيءٌ

إذا احتاج النّهار إلى دليل

يعني: إنما يقام الدليل على الشيء الخفي، فأما الظاهر الجلي، فهو بمنزلة النهار الذي لا يحتاج إلى الدليل، وهذا كقول البحتري:

عليّ نحت القوافي من معادنها

وما عليّ إذا لم تفهم البقر

ومنه تعليقه على قول المتنبي:

قد هذبت فهمه الفقاهة لي

وهذبت شعري الفصاحة له

يقول: فقاهتي في الشعر وعلمي بغوامض المعاني هذبت فهم الممدوح، وبصرته جودة الشعر من رداءته، حتى لا يستحسن شعراً هو دون شعري، وكذلك فصاحته هذبت شعري، وحملتني على التحفظ فيه، وتنقيحه حتى جاء مهذباً، ومثله لأبي تمام:

ولذاك شعري فيك قد سمعوا به

سحرٌ وأشعاري لهم أشعار

١٣- التناص والاقتباس.

وهو مما ورد أيضا من تعليقات المعري في شرحه ذكر الأصل الذي نقل عنه المتنبي معناه أو لفظه، وهذا قد مر في ذكر باب السرقة، ولكن الجديد هنا أنه لم يكن يُعنى بتطور عملية النقل بين الشعراء والاستفادة منهم، ولكنه يعنى في هذا الباب بذكر الأصل الذي تأثر به المتنبي، من القرآن الكريم والحديث والنثر والشعر وغير ذلك، وهذا ما سمي مؤخرا بالتناص، وهو السرقة غير المذمومة، وكان يعبر عن ذلك بعدة تعبيرات منها: (وهو مأخوذ من) و(مثله قول فلان) كما أشرنا، ومنه قوله في بيت المتنبي:

بعيد الصيت منبث السرايا

يشيب ذكره الطفل الرضيعا

يقول: " وخص الطفل؛ لبعده عن الشيب، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: "يوماً يجعل الولدان شيباً "، استفهم أولا عن الغائب، ثم عدل إلى الخطاب.

ومن خفي ما يرصده من تناص المعاني قوله في البيت:

أقر جلدي بها علي فلا

أقدر حتى الممات أجحدها

يقول: "وهو مأخوذ من قوله تعالى: " تعرف في وجوههم نضرة النعيم " ومثله قول الشاعر:

إذا ما جحدنا جوده ظل شاهداً

جوارحنا مهما أقمنا على الجحد

ومما ورد من بيان أخذه من كلام النبي –صلى الله عليه وسلم– تعليقه على البيت:

إن بعضاً من القريض هذاءٌ

ليس شيئاً، وبعضه أحكام

"يقول: إن الشعر بعضه هذيان، وكلام لا معنى له، وبعضه حكمة وصواب. وهذا مأخوذ من قوله –صلى الله عليه وسلم–: "إن من الشعر لحكما " أي يحكم على الإنسان، ويسِمه سمة الخير والشر".

ومما ورد من بيان أخذه من كلام الصحابة –رضوان الله عليهم– تعليقه على البيت:

وغيظٌ على الأيّام كالنّار في الحشا

ولكنّه غيظ الأسير على القدّ

يقول: "أي: وما أقوله غيظ مني على الأيام، وهذا الغيظ تأثيره في كتأثير النار في الحشا، ولكن غيظ لا يغني عن الأيام شيئاً فيغيظني عليها، مثل غيظ الأسير على القد، وهذا مأخوذ من قول علي –رضي الله عنه–: غضب الخيل على اللجم".

ومما ورد من بيان أخذه من كلام الشعراء السابقين، وقد ذكرنا بعضه، قوله في البيت:

نحن بنو الموتى فما بالنا

نعاف ما لا بدّ من شربه؟

يقول: مات آباؤنا وأجدادنا ونحن نموت أيضاً، فكيف نكره ما لا بد لنا منه؟! لأن الفرع يلتحق بأصله ويعود إليه. وقوله: نحن بنو الموتى مأخوذ من قول أبي نواس:

وما المرء إلاّ هالكٌ وابن هالكٍ

وذو نسبٍ في الهالكين عريق

١٤- اللفظ والمعنى:

لم تدُر معركة نقدية طاحنة مثلما دارت حول اللفظ والمعنى، فقد شغلت كل المهتمين باللغة وآدابها، في العربية وغيرها، وهي جدلية تقترب من أن تكون فلسفية، فواقعية اللغة توطد الصلة بين اللفظ والمعنى، ولا ننكر فضلها في اكتشاف نظريات نقدية قديمة وحديثة ومعاصرة، كانت تدور في مجملها حول اللفظ والمعنى والباث المتلقي.

ولم يكن الشعراء غافلين عن هذه المعارك –إذا صح التعبير– فهم صناع الشعر، وغواصو المعاني، فكيف لهم أن يغفلوا دور اللفظ والمعنى واتصالهما وامتزاجهما لصنع نص بديع. وإن اللفظ الشريف عند المتنبي هو ما يلذّ به السمع ولو كان معناه في الشتم، فقد استحسن المتنبي اللفظ الحسن بعيدا عن معناه

والغرض منها، ولكن علق المعري على اللفظ الحسن بأنه ذو العبارة الشريفة الذي يحقق اللذة، يقول المتنبي:

وأسمع من ألفاظه اللغة التي

يلذ بها سمعي ولو ضمنت شتمي

يقول المعري: "يقول": لَألْقى ابنَ إسحاق، وأسمع من ألفاظه، وعباراته الشريفة، اللغة التي استلذها، وإن كانت متضمنة شتمي!".

وجاء في شعر المتنبي ما يؤكد إدراكه عمق علاقة اللفظ بالمعنى ومن ذلك قوله:

تشرق تيجانه بغرّته إشراق ألفاظه بمعناها

قال المعري: "يقول: غرة وجهه تزين تيجانه كما تزين معاني كلامه ألفاظه".

وقال في سياق آخر:

كأن المعاني في فصاحة لفظها

نجوم الثريا أو خلائقك الزهر

قال المعري: "وخص الثريا؛ لأنها ظاهرة يعرفها كل أحد، ولأنها منظومة مجتمعة، والشعر كذلك".

وقد نبه المعري هنا إلى أن الشعر ينبغي أن يكون حسنه معروف مميز، وأثره على المتلقي مضمون، ولا يفهم من ذلك أنه لا يدرك دور الإغراب والغموض في رفع قيمة الشعر وإحداث متعة لدى المتلقي، فهذا قد استخرجنا أدلته من مواضع أخرى، ولعل وسط الأمر أن يقال: إن الشعر الحسن هو الذي لا يكون مباشرا لدرجة السطحية والسفاهة، ولا يكون غامضا لدرجة الإبهام، فكل أمر إذا ما كان وسطا أحدث القصد منه.

ومن لطائف ما ذكره المعري من دور العقل في استخراج المعاني، وتأكيده على أن المعنى يأتي بقصد الشاعر ووعيه، وأنه يخطط المعني ويرتبه في ذهنه أولا، وأن العملية لا تخضع لوحي ولا إلهام، ولكنها عملية عقلية، قوله تعليقا على بيت المتنبي:

حملت إليه من لساني حديقةً

سقاها الحجي سقى الرياض السحائب

يقول: حملت إليه حديقةً من المدح، سقاها العقل، كما يسقي السحاب الروض؛ وذلك لأنه بالعقل يرتب مثل هذا الترتيب وبه يستخرج مثل هذه المعاني".

ومما جاء في سياق اللفظ الحسن أيضا أن يكون جامعا لعدة معان في وقت واحد، وربما هذا ما يقصد به "التوسع" ومن ذلك قوله تعليقا على بيت المتنبي:

ومن اللفظ لقطةٌ تجمع الوصـ

ـف وذاك المطهّم المعروف

قال المعري: "يقول: من الألفاظ لفظ يجمع جميع الأوصاف، وهو المطهم المعروف. أتى بوصفه على وجه الإجمال، فجمع الوصف في أقل الألفاظ وأوجزها، ولم يذكر الوصف على سبيل التفصيل".

ومما علق به على أهمية المعاني وأنها إذا ما أدت رسالتها فهي من السحر، قوله تعليقا على بيت المتنبي:

ما نال أهل الجاهلية كلهم

شعري، ولا سمعت بسحري بابل

"يقول: إن أهل الجاهلية ما نالوا مثل شعري، وكذلك أهل بابل ما سمعوا بمثل سحري؛ لرقة ما أستنبط من المعاني". وهنا يكون قد يعلل وجهة نظر الشاعر في تفوقه على القديم برقة معانيه، وجودة شعره.

ومن أجود النصوص التي أشار فيها المعري إلى دور الإغراب في اللفظ والمعنى تعليقه على بيت المتنبي:

شاعر المجد خدنه شاعر اللفـ

ـظ كلانا رب المعاني الدقاق

"يقول: هو شاعر المجد يبدي فيه البدائع والغرائب، وأنا شاعر اللفظ، فكل واحد منا بديع في فنه، ويغرب في شعره، ويأتي بدقائق المعاني التي يعجز عنها غيره.

١٥- الغموض والإغراب:

أدرك الناقد العربي القديم وظيفة الغموض في إثراء العمل الأدبي، وتأثيره في المتلقي، فليس الغموض -كما يُشاع- نظرية غربية خالصة النشأة مؤرخ لها بظهور كتاب "سبعة أنماط من الغموض" لوليم أمبسون، ولكن من يتتبع كتابات المعري ومن قبله يدرك مدى تصوره العميق لأثر الإغراب والغموض في النص، كما أن الشعراء أدركوا ذلك فخرجوا على أهم سمات الشعر الجاهلي، وهي المباشرة والوضوح، وتردد كثير منهم في اتباع أهم شروط استحسان الشعر، وهو وضوح العلاقة بين المشبه والمشبه به، فأصبحت العلاقة بعيدة، تحتاج إلى إعمال التفكير.

واستطاع أبو تمام ومن ذهب مذهبه أن يؤسسوا تيارا جديدا يسترعي انتباه القارئ، ويحفظ طاقاته التفكيرية، ولا يقتصر على موافقة ذائقة العربي التي كانت تميل إلى الشعر واضح الدلالة، وكذلك نحا المتنبي نحو أبي تمام، لكن مع تفرد في الصياغة، واستقلالية في الأسلوب، وتمكُّن من الصورة، وخروج على المألوف، ما مكنه من أن يجمع بين عمق الدلالة وسهولة المأخذ.

ولم يكن المعري أبعد منهما عن الشعر العميق أو الغامض، فهو أيضا من الذين اطمأنوا إلى أثر المعاني الغامضة في المتلقي،

وعبر عن ذلك كثيرا، ومن يستقصي رضا المعري عن الغموض والإغراب يجده قد ورد في عشرات المواضع من معجز أحمد، ومنه تعليقه على بيت المتنبي:

قد هذبت فهمه الفقاهة لي

وهذبت شعري الفصاحة له

يقول: "الفقاهة: الفطنة والعلم بغوامض الأمور، يقول: فقاهتي في الشعر وعلمي بغوامض المعاني هذبت فهم الممدوح، وبصرته جودة الشعر من رداءته، حتى لا يستحسن شعراً هو دون شعري"، وتعليقه على البيت:

شاعر المجد خدنه شاعر اللف

ظ كلانا رب المعاني الدقاق

يقول: "هو شاعر المجد يبدي فيه البدائع والغرائب، وأنا شاعر اللفظ، فكل واحد منا بديع في فنه، ويغرب في شعره، ويأتي بدقائق المعاني التي يعجز عنها غيره"، ويبدو لنا مدى توافق المعري مع المتنبي في نظرتهما في الشعر، وهذا ما جعل المعري يفضل شعر المتنبي ويعطيه صفة الإعجاز دون غيره.

١٦-نكارة المعنى: التحسين والتقبيح المعنوي

يمكن الاستدلال بموقف المعري من إنكار بعض معاني المتنبي على أنه لم يكن متعصبا له، ولكنه كان ناقدا يفصح عن مواطن الجمال والقبح على سواء، ومن ذلك قوله تعليقا على بيت المتنبي:

يا سيف دولة ذي الجلال ومن له

خير الخلائق والعباد سميّ

يقول: "إن عنى بذي الجلال، الله تعالى، فهو في هذا الموضع قبيح، لأنه لا يقال: دولة الله تعالى. وإن عنى به الخليفة فهو أشنع، لأن هذا الوصف لا يطلق على غير الله تعالى".

ومن نظراته في التقبيح والتحسين المعنوي أنه رد صفة القبح عن بيت المتنبي الذي يقول فيه:

فأبلغ حاسديّ عليك أنّى

كبا برقٌ يحاول بي لحاقا

يقول: "وقيل: هذا أمر للممدوح، ويقتضي أن يكون دون الأمر، وذلك قبيح، ولكنه لما قال: حاسدي عليك أخرجه عن حد القبيح بأنّ بيَّن: أن الحسد كان لاختصاصه".

ومن موقفه أيضا أن يحسن المعاني بحكم مطلق، ومن ذلك تحسينه طريقة وصف القيد في بيت المتنبي:

يقاتل الخطو عنه حين يطلبه

ويطرد النّوم عنه حين يضطّجع

قال المعري: "وهذا أحسن المعاني في وصف القيد".

١٧-مقياس الحكم بجودة الشعر:

تحتاج هذه الجزئية جهدا وتقصيا لجميع كتبه، ولكنه قد ترك لنا في كتابه بعض معايير الحكم بجودة الشعر، ومنها أنه يرى ضرورة أن يكون المتلقي واعيا مثقفا ذا خبرة بالشعر، ويظهر ذلك في تعليقه على بيت المتنبي:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً

وآفته من الفهم السقيم

قال المعري: " كم إنسانٍ يعيب قولاً صحيحاً لا آفة فيه، وإنما يكون من فهم سقيم، حيث لا يتصور جودة الكلام وصحته، وإن الجاهل عن إدراكه وإدراك معناه، لا يعيب في شعري".

ومن معايير الجودة الغموض والإغراب، يقول: "علمي بغوامض المعاني هذبت فهم الممدوح، وبصرته جودة الشعر من رداءته".

١٨-المبالغة:

يميل العرب إلى المبالغة الحسنة، ولها وقع عندهم على النفس، ويدركون دورها في الأسلوب حقيقيا كان أم مجازيا، وإن المبالغة قد أثرت اللفظ العربي وأخرجته عن سياقه الصوتي وأكسبته دلالات كثيرة، فأدخلته في أبواب المجاز من تشبيهات واستعارات وغير ذلك، ما أكسب اللغة العربية طاقات تعبيرية هائلة، ومن اللافت أن النقاد قد انتبهوا إلى ذلك من أول آثارهم النقدية.

قسم المعري المبالغة إلى عظيمة، وحسنة، ومليحة، وقبيحة، وأحيانا لا يصفها، وذلك راجع لأثرها المعنوي لا محالة، وأحيانا قليلة إلى اللفظ، فمما استحسنه قول المتنبي:

ففي فؤاد المحب نار هوىً

أحر نار الجحيم أبردها

"يعني أن أبرد نار الهوى مثل أحر نار الجحيم؛ وقصد بذلك تعظيم الهوى، فإذا كان أبرد هذه النار تزيد على أحر تلك، فلا مبالغة فوقه"، ومنه تعليقه على قول المتنبي:

طلبتهم على الأمواه حتّى

تخوّف أن تفتّشه السّحاب

قال المعري: "يقول: لم يبق ماء في المفازة إلا طلبتهم عليه، حتى ظن السحاب أنك ترقى إليه وتطلبهم فيه! وإنما ذكر السحاب لأنه يحتمل الماء، فجعله من جملة الأماكن التي تضمن المياه، وهذا مبالغة عظيمة"، وتعليقه على قول المتنبي:

ولولا تولى نفسه حمل حلمه

عن الأرض لانهدت وناء بها الحمل

قال المعري: "يقول: لولا الممدوح تولى حمل حلمه عن الأرض لانهدت الأرض من ثقل حلمه، وأثقلها الحمل، فجعل الحلم أعظم من الأرض؛ وهو مبالغة عظيمة".

وثمة مواضع قليلة استقبح فيها المبالغة، ومنها قوله في بيت المتنبي:

يا سيف دولة ذي الجلال ومن له

خير الخلائق والعباد سميّ

فقال: "إن عنى بذي الجلال، الله تعالى، فهو في هذا الموضع قبيح".

المبحث الثاني:
ما ذكره المعري حول علوم اللغة العربية:

كان المعري وما يزال من العلامات البارزة في الفكر العربي والإنساني، وكذا ممن قد يسمون علماء موسوعيين؛ وذلك أهّله لأن يحتل المكانة التي احتلها، على الرغم من ضياع بعض أعماله، وعدم وصولها جميعا. وقد جاء اهتمام المعري بفروع اللغة في معجز أحمد لعدة أسباب؛ من أهمها التبرير لجودة شعر المتنبي، والاستشهاد على أحكامه، وشرح مفرداته، وبيان تقدم أحمد على من سبقه وتلاه، وكذلك لرد بعض معانيه، وتضعيفها إذا احتاج الأمر إلى ذلك، كما أنه وظف علم النحو لشرح البيت، وتوجيه المعنى، كل ذلك في تماسك جيد، واستيعاب تام، لا يخلو من تجديد وإبداع، كما أنه وضع مصطلحات جديدة من عنده توبع عليها، كما أن له بعض الآراء اللغوية التي تجدر دراستها. ويبدو أنه اهتم في كتابه ببعض العلوم اللغوية منها:

١- التفسير اللغوي والمعاجم:

من سنة المعري في معجز أحمد أنه يبدأ بتفسير الغريب معتمدا على حفظه من كلام العرب ومن المعاجم العربية، ومستشهدا عليها أحيانا بآيات القرآن الكريم والشعر والنثر، وكذا يذكر آراء ابن جني وغيره في بعض الكلمات وتفسيرها مكتفيا بذلك مقررا برأيه، ومن ذلك شرحه قول المتنبي:

ومني استفاد الناس كل غريبةٍ

فجازوا بترك الذم إن لم يكن حمد

كل غريبة: أي كل لفظ غريب، أو معانٍ غريبة، أو خصلة، وفي جازوا قولان: أحدهما: ما قاله ابن جنى: أنه من قولهم: هذه الدراهم جائزة. أي تجوز على خبث، كأنه يقول: إن الناس استفادوا مني الأخلاق الغريبة والمعاني البديعة. فتكلموا ما ليس في طباعهم فجازوا بترك الناس ذمهم، وإن لم يحمدوهم. والثاني: أن جازوا أمر من المجازاة. وعدل عن معاتبه إلى الخطاب فيقول: أيها الناس إذا استفدتم مني هذه المعاني فجازوني بترك الذم إن لم تحمدوني.

٢- البلاغة:

لا يصدر المعري أحكامه على عواهنها، ولكنه يلجا إلى التعليل والاستشهاد، وهو لا يفتأ يوضح معالم الجمال وفنون البلاغة، مؤصلا، ومستشهدا، ومثنّيا بأبيات مؤكدة ومفسرة، وكان يلجأ في التوجيه البلاغي إلى التعليل لأحكامه التي يصدرها؛ إذ إن البلاغة علم ذوقي قبل أن يكون معياريا، وخاضع لتجاذب الآراء قبل أن يخضع لأحكام المنطق؛ لذلك هو لا يحب أن يدع شكا في صدر المتلقي لحكم يصدره بتحسين أو تقبيح، فيلحقه بتعليله لهذا الحكم حتى لا يترك مثار شك في صدر القارئ، ومن ذلك تعليقه على بيت المتنبي:

والخيل تبكي جلودها عرقاً

بأدمع ما تسحها مقل

قال المعري: أراد أن الخيل تسيل عرقها من شدة عدوها، وشبه العرق بالدمع، وشبه جلود الخيل بالعيون، وهذا التشبيه حسن؛ لأن الدمع والعرق لا يكونان إلا من الشدة.

ومنه أيضا تعليقه على بيت المتنبي:

طردت من مصر أيديها بأرجلها

حتّى مرقن بنا من جوش والعلم

قال المعري: "وطرد الأيدي بالأرجل: إتباعها من غير تراخ في عدو. وهو استعارة لطيفة؛ لأنه جعل أرجلها تطرد أيديها في السير، كما يطرد الصيد".

كما أنه أثرى الدرس البلاغي في هذا الكتاب بتأصيل بعض مصطلحات البلاغة، والاستشاهد لبعض فنون البديع، وكان مذهبه قريبا من مذهب عبد القاهر الجرجاني في تناول النص، فابتعد عن معيارية الأحكام، والالتفاف بعباءة المنطق التي تنقل الدرس من تحت مظلة الذوق والجمال إلى عراء الجدل وجفاف.

٣- النحو:

لم يكد يمر بيت فيه فائدة نحوية إلا جلاها، أو تركيب يحتاج إلى توضيح إلا وضحه، أو غموض يجليه الإعراب إلا أعرفه وفصله، أو خطأ –وهو قليل– إلا أوجد له توجيها، كل ذلك عن علم بمعرفة كلام النحاة، واقتدار يشف عن تبحر في لغة العرب، ومن ذلك تعليقه على البيت:

وأشقى بلاد الله ما الرّوم أهلها

بهذا وما فيها لمجدك جاحد

قال المعري: ما الأولى: بمعنى الذي أي الروم أهلها. وما الثانية: للنفي. والضمير في أهلها وفيها يعود إلى معنى ما الأولى، لأنه بمعنى البلدة والأرض. وفي إعراب البيت خلل، لأنه إن حمل على أنه فصل بين أفعل، وما هو من تمامه، بخبر الابتداء، وهو قبيح، لأنه قال: أشقى بلاد الله ما الروم أهلها بهذا. وتأويله: أن قوله: بهذا متعلق بمحذوف يدل عليه أشقى، أي شقوا بهذا.

وإن المعري لم يكن في أغلب أحواله مخالفا لمذهب النحاة، بل يراجعهم في تعليله، ويذكر مذاهبهم، ومن ذلك تعليقه على البيت:

أجدك ما تنفك عانٍ تفكه

عم بنَ سليمانٍ ومالاً تقسم

قال المعري: أجدك: نصب على المصدر. أي أتجد جداً ومعناه: أيجد هذا الفعل. وقوله: عم ابن سليمانٍ: أي يا عمر بن سليمان، فرخمه. وهذا جائز على مذهب الكوفيين؛ إذا كان الاسم على ثلاثة أحرف، متحرك الأوسط، ولا يجوز عند البصريين إلا إذا زيد على ثلاثة أحرف، فيرد عليه الترخيم. يقول: إنك أبداً في فكاك الأسرى وتفريق الأموال.

٤- العروض:

العروض ضابط الشعر العربي، وبدونه يخرج الكلام عن الشعر، وليس الوزن وحده هو الذي يجعل الكلام شعرا، ولكن الشعر وزن وقافية وقصد وشاعرية وتصوير، وما نقص منه شيء اختل عن ميزان الشعر، وقد رصد المعري ما وقع في شعر المتنبي من خروج عن ميزان علم العروض، ومن ذلك تعليقه على البيت:

تفكره علم، ومنطقه حكمٌ

وباطنه دين، وظاهره ظرف

قال: اعلم أن العروض الطويل إذا لم يكن مصرعاً لا يجيء إلا من مفاعلن مقبوضة فأما مفاعيلن على ما جاء في هذا، فإنما يؤتى به في المصرَّع فقط. وعذره من وجهين: أحدهما: أن هذا وإن كان هو الأكثر، فقد جاء في مثل هذا عن العرب، ألا ترى أن الكامل لا يكون عروضه مفعولن إلا في المصرع، وقد جاء عن العرب مفعولن في الكامل. والثاني: أن مفاعيلن، أصل العروض الطويل، فيكون قد رجع هاهنا إلى الأصل لضرورة الشعر، لأنه إذا جاز الخروج عن أصل الكلمة للضرورة، فالرجوع إلى الأصل أولى. كما أن البيت قد روى: ومنطقة حجا، وروى: تقى، وهذا لا اعتراض عليه.

وهنا نلاحظ كيف علل المعري لخروج المتنبي عن قواعد العروض بثلاثة تعليلات.

٥- القافية:

لم يترك المعري عيبا في القافية –على قلته– أو قلقا بها، إلا ذكر ذلك وعلق عليه، وفي ذلك بيان واضح على موضوعية المعري وعدم تحريه تحسين كلام المتنبي لشيء في نفسه، ومن ذلك قوله في البيت:

وما لاقني بلدٌ بعدكم

ولا اعتضت من ربّ نعماي ربْ

قال المعري: وقوله: من رب نعماي رب في موضع النصب، وكان من حقه أن يقول: رباً؛ لأن المنصوب المنون إذا وقف عليه أبدل التنوين ألفاً، ولكنه أجراه مجرى المرفوع والمجرور في إسقاط التنوين في الوقف، ومثل هذا جائز في القافية، وخفف الباء أيضاً؛ لأن الحرف المشدد إذا وقع حرف الروي خفف.

وقد يُعرِب عن قلق القافية وأنها مذكورة للوزن وإقامة القافية فقط، وأن المعنى لا حاجة له بها، ومنه تعليقه على البيت:

يا ليت بي ضربةً أتيح لها

كما أتيحت له، محمدها

قال المعري: وقد كان يستقيم المعنى من دون أن يذكر محمدها ويكون تقدير البيت: في ضربة أتيح لها، كما أتيحت له. لأنه صرح بذكره للحاجة إليه. ومنه أيضا تعليقه على البيت:

وما ضرّها خلقٌ بغير مخالبٍ

وقد خلقت أسيافه والقوائم

قال المعري: يقول: لا يضر هذه النسور خلقها بغير مخالب، وألا تصيد كالبازي ونحوه، فإن سيوف سيف الدولة تغنيها عن المخالب وتقوم لها مقامها. وتم المعنى عند قوله: وقد خلقت أسيافه وقوله: والقوائم فضلة لا فائدة فيها إلا إتمام القافية.

وقد يذكر سبب توجه المتنبي لوجه دون غيره بسبب القافية، ومن ذلك قول المتنبي:

سحابٌ من العقبان يزحف تحتها

سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمه

قال المعري: السحاب: يذكر على اللفظ، ويؤنث على معنى الجمع، فأنث السحاب الأول على المعنى، وذكر الثاني على اللفظ وإقامة القافية.

المبحث الثالث:
ما ذكره المعري من مصطلحات نقدية:

يمكن لمن يبحث في كلام المعري

أن يؤلف معجما للمصطلحات البلاغية والنقدية، منها ما أصله مثل مصطلح (الطاعة والعصيان) وقد ذكرته، ومنها ما تابع فيها السابقين من العلماء، إلا أنه كان من سننه إذا ذكر مصطلحا يوجب التعريف عرفه؛ لتقريب المقصود من البيت، وإمعانا في أداء الرسالة كاملة للمتلقي، وقد جمعت من ذلك بعض المصطلحات واكتفيت بها عن غيرها، وهي من الموضوعات الجدية التي يمكن دراستها في كتابات المعري. وتضيق عنها هذه الورقة، وأهم هذه المصطلحات التي ذكرها وشرحها:

١-الاستدراك.
٢-التصريع.
٣-التضمين.
٤-الحشو.
٥-الطاعة والعصيان.
٦-العدول وهو ما يسمى عند البلاغيين بالالتفات.
٧-اللحن.

الخاتمة:

لقد أثبت المعري في كتابه أن المتنبي شاعر متفرد، وسابق على شعراء عصره، وربما كل الشعراء في بعض معانيه، وإن لم يصرح بذلك بوضوح، إلا أنه من خلال استشهاده واستدلاله وتعليله يشعر القارئ بذلك، وكذلك أثبت أنه غير متعصب له؛ بما ذكره من عيوبه، وكذلك أثبت أنه واعٍ تمام الوعي بكلام السابقين من الشعراء والنقاد، وأنه ناقد يملك أدواته، ويعرف قيمة الموضوعية.

إن المعري يصلح لأن يكون نموذجا فريدا للشاعر الناقد، الذي يملك الأدوات المنهجية، والموهبة الفذة، والشاعرية المحلقة، والاطلاع الواسع، والمعرفة بأخبار العرب وأشعارهم، والحافظة المتمكنة، إنه بحق نموذج مثالي للشاعر الناقد.

الهوامش

١ - أبو الفتح العباسي، عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عالم الكتب – بيروت، ص١٣٧.

٢ - الصفدي، خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٧،ص٦٥.

٣ - ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر– بيروت، ط١، ١٩٠٠، ج١، ص١١٣.

٤ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، ص ٢٣٥.

٥ - السِّلَفي، أحمد بن محمد، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٣ ص١٠٩

٦ - العكبري، عبد الله بن الحسين بن عبد الله، شرح ديوان المتنبي، دار المعرفة – بيروت، ج ٤/ص٢٣١.

٧ - الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت، ج٢، ص١٩٩.

٨- البديعي، يوسف الدمشقي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، المطبعة العامرة الشرفية، ط١، ١٣٠٨هـ، ج١، ص٤٢٤.

٩- السابق، ٤٢٧.

١٠- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ص ٣٣٤.

١١ - معجز أحمد، ج١، ص١٣.

١٢ - معجز أحمد، ج١، ص١٧.

١٣ - العزام، محمد بن عبد الله، أضواء جديدة على معجز أحمد المزور، مجلة عالم الكتب، مج١٩، ع١، نوفمبر – ديسمبر ١٩٩٧م.

١٤ - البحث اللغوي عند العرب، ص١٥٧.

١٥ - ابن الشجري، هبة الله بن علي بن حمزة، أمالي ابن الشجري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩١ م، ج١/٢٠.

١٦ - الأمالي، ج٢، ص١١٣.

١٧ - أمالي ابن الشجري، ج٢/٢٤٠.

١٨ - فتحي، إبراهيم، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦، ص٣٩٠.

١٩ - معجم المصطلحات الأدبية، ص٣٩٠.

٢٠ - ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، ٤٢٥/٣.